# المبحث الأول

## مراجعات فى جذور الدرس البلاغى

من كلمات عبد القاهر التي أحب مراجعتها قوله :

« واعلم أنك لا تشفي الغُلّة ، ولا تنتهي إلى ثلَج اليقين ، حتى تتجاوَزَ حدَّ العلم بالشيء مُجْملاً إلى العلم به مفصَّلاً ، وحتى لا يقنعُك إلا النظر في زواياه، والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمن تتبّع الماء حتى عرف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه إلى أن يعرف مَنْبتَه ، ومجرى عروق الشجر الذي هو منه »[1].

وهذا وصف جيد لقراءة العلماء لكتب العلم وتحصيل مسائله ، وكل من يكتب يحاول أن يضيف شيئًا إلى ما قرأ ، ولا يكتفي بتلخيص ما قرأ ، وإنما يراجع النظر فيه ، ويبحث في زواياه عن خباياه ، ويُفصِّل ويحلِّلُ ويَنْغَلُّ بيقظة ووعي ، ويداخل المكامن التي تكمنُ فيها الدقائق ، وبهذا يتسع العلم بقراءة أهل العلم وإعادة كتابته لأنهم يظهرون خفيَّهُ وينشرون منه ما كان مطويّا .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٦٠ .

وكان الشيخ عبد القاهر كثيراً ما يتعهَّدُ قارئه بهذا النصح ، وكثيراً ما يحذر من السطحية .

ومعرفة معدن الماء ، ومنبت العود يَعْنِي في سياقنا معرفة ميلاد الفكرة ، وهذا شيء زائد عن التغلغل في الفكرة نفسها ودراستها وتقويمها .

والفكرة لا تولد إلا في سياق ، والسياقات مختلفة وحافلة وحاشدة ، ولا مفر من أن يجري في الفكرة شوبٌ من السياق الذي ولدت فيه وأن يجري في عروقها ماء من الشجر الذي أمدَّها ، وفرق ظاهر بين مسائل بلاغية ولدت في حقل النحو وسياقه ، ومسائل ولدت في سياق دراسة الشعر ، ومسائل ولدت في سياق التفسير ، وهكذا .

وهذا ما أفهمه من المثل الذي ذكره الشيخ عبد القاهر .

وقد افتتح عبد القاهر كلامه في البلاغة بنص كريم من هذا الباب وذلك قوله « إن التَّوْق إلى أن تقر الأمور قرارها ، وتوضع الأشياء مواضعها ، والنزاع إلى بيان ما يُشْكِلُ ، وحَلِّ ما ينعقِدُ ، والكشف عن ما يَخْفَى ، وتلخيص الصِّفة حتى يزداد السامعُ ثِقةَ بالحجة ، واستظهاراً على الشبهة شيءٌ في سوس العقل ، وطبع النفس إذا كانت نَفْسًا »[1].

وهذا النص الكريم يحضُّ حضّا شديداً على إزالة غموض المعرفة ، وإزالة الشُّبه التي تَعْلَقُ بها ، حتى تكون واضحةً من كل جوانبها ، وآفة المعرفة الغموضُ والإبهام واللبس ، لأن كل هذا يعبث بالعقول ويضلِّلُها ، ويدمِّر المعرفة والعقول معًا ، وطالما حَذّر أهل العلم من هذه الآفة .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٤ .

كما أن هذا النص يوجب أن تكون كل حقيقة من حقائق المعرفة لها برهان يؤكدها ، وحجَّةٌ تستظهر بها ، وأن يكون حَمَلَةُ العلم مقتنعين بمسائله ، وقادرين على الإقناع بها ، فليس المطلوب أن نُحصِّل العلم ونحمله فقط ، وإنما الواجب أن نكون قادرين على حمايته بحجته ، وبرهانه ، وبذلك يكون حامل العلم حاميًا له ، وأنا أحب الوقوف عند مثل هذا من كلام العلماء ، لأن العلم يكون في ضَيْعَةٍ إذا حَمَلَه العاجزون عن حِمايته ، وليس ثمَّة حماية له إلا برهانه الظاهر ، وحجته الدامغة .

وهذا النص الكريم كتبه الشيخ مقدمة للذي كان بين يديه من كلام أهل العلم في البلاغة وكان كله غموضًا وإبهامًا ، وقد أشار إلى طول الزمن الذي تتبّع فيه كلام العلماء في هذا الباب فوجد بعضه « كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيئ ليطلب ، وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج »[1] وقد احتشد لبيان هذه الرموز ، وهذه الإيماءات ، والبحث عن الخبيئ ، واستخراج الدفين ، وقد رأينا ذلك يجري في كل ما كتب .

وقد سار في كشف هذا الغموض على خطة بالغة الإحكام والإتقان ، لأنه استصفى من كلام العلماء الكلمات التي تواردوا عليها واعتبروها أصلاً في حديثهم عن البلاغة ، فوجدها ثمانية ألفاظ هي « النظم ، والترتيب ، والتأليف ، والتركيب ، والنسج ، والتحبير ، والصياغة ، والتصوير » وأيقن أن تفسير هذه الثمانية ، والتدسُّس في سرِّها ، واستخراج مرادهم منها هو الذي يهدي إلى معرفتهم وعلمهم بالفصاحة والبلاغة .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٤ .

وقد رجع بهذه الكلمات إلى أصول استعمالاتها في غير باب الفصاحة والبلاغة ؛ وأخذ يراجع معانيها الحقيقية وما يقارب المراد بها في هذا الاستعمال المجازي ، لأنها لا يوصف بها الكلام إلا على وجه من المجاز ، واختار من بينها كلمة النظم لأنها أجمع للمعاني ولأن العلماء قبله قد أفردها بعضهم في عناوين كتبهم كنظم القرآن للجاحظ وغيره .

واستطاع بهذه المقابلات والتدقيق في المعنى الحقيقى لنظم الدُّرِّ وغيره ووضع ذلك بإزاء صناعة الكلام أن يكشف غشاوة هذه الكلمة التي فتحت له باب العلم ، وقد كتبت ذلك في مواضع أخرى وأريد الآن شيئًا آخر . وهو أن هذه الألفاظ الثمانية التي وجد عبد القاهر كلام العلماء يدور حولها ليست مما استخرجه العلماء ، وإنما هي مما وصف بها الشعراء الشعرَ يعني بلاغته وفصاحته ، فإذا كانت جذر عمل عبد القاهر فالواجب أن نقول إن هذا الجذر من صناعة الشعراء ، وأن الشيخ عبد القاهر وهو يشرح مراد العلماء بالفصاحة والبلاغة كان يشرح مراد الشعراء ، وأن وصف البلاغة الذي هو كالرمز ، والإيماء ، والإشارة في خفاء هو وصف الشعراء لهذه البلاغة .

وهذا من أهم ما يجب أن يلاحظ في تاريخ هذا العلم ، وقد أغفلناه وصار علمًا مَسْهُوّا عنه كما كان يقول علماؤنا . وأراه ظاهرًا كفلق الصُّبح ، وقد ينكره من ينكره ، وخصوصًا تلك البقايا التي لا تزال تذكر أن البلاغة العربية بلاغة يونانية ، ويجب على من ظهر له صواب أن يتكلم به ، ولا يعنيه موافق ولا مخالف ، وقد نقل الشيخ الشاطبي كلمة جليلة في كتاب الاعتصام تقول : « اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله » .

ذكر الجاحظ أن العرب وصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوها كبُرُود

العَصْب ، وكالحُللِ ، والمعَاطِف ، والدِّيبَاج ، والوَشْي وأشباه ذلك ، قال وأنشدني أبو الجماهر جُندَب بن مدرك الهلالي :

**لا يُشْتَرى الحمدُ أُمْنِيَّةً لا يشْترى الحمدُ بالمَقْصِرِ**

**ولكنما يُشْتَرى غاليًا فمن يُعطِ قيمته يُشْتَري**

**ومَنْ يعتطِفْهُ على مئزرٍ فنعم الرداءُ على المِئزر**

والمقْصِر الشيء الدون الحقير ، وأراد أن الحمد الذي يجري به لسان الشعر لا ينال بالشيء الحقير وإنما يكون حين تكون الفَعال الكريمة ، والمروءات والبطولات كما قال أبو العتاهية :

**شِيَمٌ فَتَّحَتْ من المدح ما قد كان مُسْتَغْلَقًا على المدَّاح**

وكما قال أبو تمام :

**نظَمَتْ لَهُ خرزَ المديح مكارمٌ يَنْفُثْنَ في عُقَد اللسان المُفْحَمَ**

وراجع هذا الشعر فإنه نفيس ، والمهم أن أبا الجماهر ذكر أن الشعر معطف وأنه رداء ونعم الرداء والرداء فيه معنى النسج والنقش ، والألوان ، والتصاوير قال الآخر :

**ولو كُنْتُ نسَّاجًا سَدَدْت خَصَاصها بقولٍ كطَعْم الشُّهد بالبارد العذب**

فأشار إلى أن القول نسج ، والشاعر نسَّاجٌ وأن الكلام يذاق ويجد المتذوق له طعمًا كطعم الشُّهد بالبارد العذب وهذا من الكلام الذي لا تتخطاه ألسنة العارفين ، وهل تشك في أن هذا أصل للذي دار في كتب البلاغيين في وصف الكلام بالعذوبة والحلاوة وأنه كالماء في السلاسة ، وأيضًا لما دار في كلامهم من وصفه بالنسج والتصوير والوشي والتحبير ، وقال أبو الجماهر :

**فإن أهلِـك فقـد أبقيـتُ بعـدي قـوافي تُعجـبُ الـمُتَمثِّلينـا**
**لذيـذاتُ المقـاطع محكمـاتٍ لـو أنّ الشّـعر يُلْـبَسُ لارتـدينا**

قوله «لذيذات المقاطع» كقول السابق «كطعم الشُّهد بالبارد العذب» وقوله «محكمات» أراد نسجها وهو يهيئ بهذه الكلمة لقوله «لو أن الشعر يُلْبَس لارتدينا» .

وقال أبو قردورة يرثي ابن عمَّار قتيل النعمان وكان قد نهاه عن منادمته .

**إنّى نَهَيْتُ ابـنَ عمَّـارٍ وقُلْـتُ لـه لا تـأمَنَنْ أحمـرَ العيـنين والشَّـعَره**
**إن الملـوك مَتَـى تَنْـزِل بسـاحتهم تَطِـرْ بنـارك مـن نـارهم شَـرره**
**باجَفْنةَ كإزاء الحَـوْض قـد هَـدَمُوا ومَنْطقا مثل وَشْـيِ اليَمْنَـةِ الحِـبرَه**

والشطر الأخير فيه وصف البلاغة بالنسج والتحبير والتصوير . وكان أهل اليمن يجيدون صناعة البرود في الزمن القديم جدًّا وكان البرد اليماني إذا تقادم بقى فيه سخاؤه وكرمه ، وكان العرب يشبهون نساءهم إذا كبرن وبقي حسنهن بالبرد اليماني كما قال أبو الأسود يصبو بأم عمرو وهي عجوز .

**أَبَى القلـبُ إلا أمَّ عمـرو وحُبَّهـا عجوزًا ومن يحبـب عجـوزا يُفنَّـدِ**
**كبُرد اليمانـي قـد تقـادم عهـدُه ورُقْعَتُه ما شـئت في العـين واليـدِ**

وأبو تمام يُشبه البلاغة بالدر والمرجان والشذر والنظم والنمنمة والوشي . كل ذلك في كلام واحد .

**حـذاءُ تمـلأ كـل أذن حكمـة وبلاغـةً وتُـدِرُّ كـلَّ وريـد**
**كالـدرُّ والمَرْجـان ألِّـف نظمُـه بالشَّـذْرِ في عُنْـقِ الفتـاة الـرود**
**كشـقيقة البُـرْد المُنَمْنَم وشْـيهُ فى أرْضَ مَهْـرَةَ أو بـلاد تَزِيـدِ**

وهذا قريب جدًّا من كلام عبد القاهر لأنه ذكر النظم الذي هو نظم الـدر ، وما لوحظ فيه من الدقة والملاءمة والبراعة في توزيع الدر والمرجان والشذر، كل ذلك وفق نظام دقيق محكم فازدان العقد بهذا النظم وحسن ثم زاد حسـنه وبهر بعنق الفتاة الرود، وهذا كله صار من كلام البلاغيين، ولاحظ أن أبا تمام جمع نظم الكلام واختيار مادته وتوزيع الكلمات وأحوال الكلمات على وفق ما جرى في قلبه وجعل توزيع الكلمات ووضعها في مواضعها الأخـص بهـا والأشكل كتوزيع الدر والمرجان في العقد الذي ازدانت به الحسناء .

وضع هذا بإزاء كلام عبد القاهر تجـد أن عبـد القـاهر كأنـه يشـرح هـذه الأبيات ، ويؤكد لك هـذا أن أبـا تمـام هنـا يصـف صَـنْعته في شـعره وأنهـا كصنعة ناظم الدر والمرجان وتأليف الشذر بينهما ، وأن كلمات أبي تمام في شعره بمحازاة هذا الدر والمرجان والشذر، وأن أبا تمام بمحازاة ناظم اللؤلؤ، ولم أجد شيئًا من البعد فضلاً عن التكلف وأنا أقول إن النظم الذي هو جـذر الدراسة البلاغية عند عبد القاهر شديد القرب من النظم في هذه الأبيات .

والبحتري يصف شـعـره بالنقش ، ويـريـد نقش الـدنانير ، وطالمـا قـارن عبد القاهر بين نظم الكلام والنقش في الخـاتم والسـوار والشَّـنف ، وأكّـد أن صنعة النقش صنعة قائمة بنفسها والبصير بها يحكم عليها مـن حيـث هـي ، غير ناظر إلى المادة التي يكون عليها النقش ، وكـذلك الشـعر صـنعة قائمـة بنفسها وهي غير المادة التي يكون منها الشعر التي هي المعاني .

قال البحتري :

**بـــمنقوشـــةٍ نَقْش الـــدنانيرِ يُنْتَقـــى لـــها اللفظ مختارا كما يُنْتَقَـــى التـــبرُ**

والبحتري هنا يؤكد الصلة بين النقش وصناعة الكلام ، وأن ألفاظه تُنْتَقى كما يُنْتقَى الذهب ، ويوشك أن يكون هذا صريحًا في بيان أن مادة النقش في الشعر هي الألفاظ ، ولَيْسَت المعاني ومن غير المعقول أن نفهم أن الألفاظ هنا هي الألفاظ المفردة لأن الصياغة والسَّبْك والتأليف هي التي بها يعلو قدر اللفظ وإذا بعد اللفظ عنها صارت كل الألفاظ سواء وهذا لا يغيب عن أحد فضلاً عن أبي عبادة .

وأكتفى بهذا لأؤكد أن الكلمات التي ذكر عبد القاهر أن عليها المعوَّل في كلام العلماء قبله هي كلمات الشعراء ، وأن علماء البلاغة استخدموها استخدامًا مجازيًّا كما استخدمها الشعراء ، وأن المراد بالبلاغة عند أربابها كان خبيئًا فيها ، وأنها هي مفتاح باب المراد بالبلاغة ، وأن الدفين كان فيها ، وأن الدليل على مكان الدفين كان فيها ، وأن الشعراء هم الذين فتحوا الطريق لسالكيه من العلماء ، وأبو قردورة وطبقته هم الذين وصفوا البلاغة بوشي اليَمْنة الحبرة ، وأن الوشي هو التصوير ، وهو النمنمة ، التي ذكرها أبو تمام وهو النقش ، وقد ذكر كبار المثقفين الذين يحبون أن يضيفوا كل شيء عندنا إلى اليونان أن ذكر أمثال هذه الصنائع في كلام عبد القاهر برهان على أخذه عن أرسطو لأن العرب لا يعرفون هذا وكذلك الفرس الذين ينتمى إليهم عبد القاهر . ويمكن أن يصح ما قالوه لو قلنا إن أبا قردورة الذي رَثى قتيل النعمان قرأ كتاب الشعر قبل أن يترجمه القسيس أبو بشر بثلاثة قرون وأن أبا الجماهر جُنْدُب بن مُدرك الهلالي قرأ هو الآخر كتاب الشعر ، وكان أعرابيًّا شديد البداوة .

وقد بينت أن بيت أبي تمام « كالدُّرِّ والمرَجان أُلف نظمه بالشذر » يوشك

أن يكون بيانًا لمفهوم النظم كما ذكره عبد القاهر ، أو على الأقل معينًا له وظهيرًا على ما قال . وليس هذا غريبًا على عبد القاهر وإن كان غريبًا علينا لأنى رأيت عبد القاهر يستظهر بوصف الشعراء لصنعة الشعر في رَدّ كلام المخالفين له في البلاغة وسأبين ذلك إن شاء الله .

ومن الغريب أن يقول الدكتور شكري عياد إن فكرة النظم عند عبد القاهر من وحي كلام أرسطو في الوحدة في كتاب الشعر ، وقد راجعت كلام أرسطو في الوحدة ووضعت كلام عبد القاهر بينه وبين كلام أبي تمام فوجدت بعدًا شاسعًا بين كلام عبد القاهر وأرسطو وقربًا شديدًا كما بينت بينه وبين أبي تمام .

ومن المعلوم أن عبد القاهر وغيره من علمائنا كانوا يَتَفَقَّدون كلام العرب كله ويستقصونه ليستخرجوا طرائقهم ، وسننهم في كلامهم ، وأن علوم العربية كانت بهذا التَّقَصِّى ومنه وهذا شائع ومعروف .

والذي ذكرته من حديث أبي تمام وإفادة عبد القاهر منه ليس من هذا الباب ، وإنما من باب آخر هو أن أبا تمام يصف بلاغة شعره وصنعته فيه وعبد القاهر يكتب في الموضوع نفسه لأن علم البلاغة هو علم صَنْعة الشعر وعلم صنعة الكلام وهذا طريق آخر وقد سلكه عبد القاهر ليس في هذا الذي استخرجته وإنما تكلم فيه كلامًا مباشرًا حين ساق أبياتًا كثيرة تحدث فيها الشعراء عن صنعتهم لشعرهم ووصفهم لهذا الشعر ، وحاول أن يتفقد كلامهم ، وأن يحرر به أفكاره ، بل وأن يرد به على من خالفهم ، وهذا واضح في أن هذا الباب كان مصدرًا من مصادر عبد القاهر ولكنه مسهوٌّ عنه ، ومن الشعر الذي ذكره عبد القاهر في وصف الشعراء لصنعة الشعر قول تميم بن مقبل :

إذا مِتُّ عن ذكر القوافي فلن تَرَى ... لها قائلاً بعدى أطَبّ وأشعرا
وأكثر بيتًا سائرًا ضُرِبَتْ له ... حزون قوافي الشعر حتى تيسَّرا
أغرَّ غريبًا يَمْسَحُ الناسُ وَجْهه ... كما تَمْسَحُ الأيدي الأغرّ المشهرا

وقول عدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بتُّ أجْمَعُ بينها ... حتى أقوِّم مَيْلَها وسِنَادهَا
نظر المثقِّف في كعوبِ قناتهِ ... حتى يُقيمَ ثقافُهُ مُنآدها

وقول بشار :

عميت جنينًا والذكاء من العَمَى ... فجئْتُ عظيمَ الظَّنِّ للعلم موئلا
وغاض ضياءُ العين للعلم رافدًا ... لقلبٍ إذا ما ضَيَّع الناسُ حصَّلا
وشعرٍ كنوْر الروض لاَءمْتُ بينه ... بقولٍ إذا ما أحْزَن الشعرُ أسْهلا

وقوله :

زورُ ملوك عليه أُبَّهةٌ ... يَغْرف من شعره ومن خُطَبه
لله ما راح في جوانحه ... من لؤلؤٍ لا ينامُ عن طلبهِ
يَخْرُج من فيه للنَّديِّ كما ... يُخْرُج ضوء السراج من لَهَبهِ

وقول أبي تمام :

إليك أرَحْنَا عازبَ الشعر بَعْدَما ... تمهَّل في روض المعاني العجائب
غرائب لاقت في فنائك أنْسَها ... من المجد فهي الآن غير غرائب
ولو كان يفنى الشعرُ أفناه ما قَرَتْ ... حياضُك منه في السِّنين الذُّوَاهبِ
ولكنه صوبُ العقولِ إذا انْجَلَتْ ... سحائبُ منْهُ أُعْقِبَتَ بسحائب

وقوله :

حـــذاء تمـــلأ كـــل أُذْنٍ حِكْمَـــةً وبلاغـــةً وتُـــدِرُّ كُـــلَّ وريـــد
كالـــدُّرِّ والمَرْجـــان ألِّـــف نظمُـــه بالشَّـــذْرِ في عُنُـــقِ الفتـــاة الـــرودِ
كشـــفيقة البُـــرْدِ المُنَمْنَمِ وشْـــيُه فى أرْض مَهْـــرَةَ أو بـــلادِ تزيـــد
يُعطى بـــها البُشْرى الكَريمُ ويرتـــدي بردائِهـــا في المَحْفِـــل المشـــهودِ
بشرى الغـــنيِّ أبي البنـــات تتابَعَـــتْ بُشـــراؤُه بالفـــارس المولـــود

وقول البحتري :

أيذهبُ هذا الـــدهرُ لم يُـــر مَوْضِـــعي ولم يُدْرَ ما مقـــدارُ حلِّـــي ولا عَقْـــد
ويكُسد مِثْلي وهـــو تـــاجرُ سُـــؤْدَدٍ يبيـــع ثمينـــات المكـــارم والمجـــد
سوائرُ شـــعرٍ جـــامعٌ بَـــدَدَ العُلَـــى تعلَّقْنَ مَنْ قَبْلي وأتْعبْن مـــن بعـــدي
يُقَـــدِّرُ فيهـــا صـــانعٌ مُتعَمِّـــلٌ لإحكامهـــا تقـــدير داود في الســـرد

ذكر عبد القاهر أنه ذكر هذه الأبيات ليستظهر بها على بيان فساد قول من قالوا إن البلاغة في مذاقات الحروف وفى سلامة الكلمات وخلوها من كل ما يكدُّ اللسان ويؤذى السمع . وكان هذا مذهبًا شائعًا ، وإلا لما ذكره عبد القاهر لأن العلماء لا يناقشون الرأي إلا إذا كان يتردَّدُ في ألسنة الناس ، وكان من يذهب إليه ممن له صواب يُؤخذُ عَنْه ، ومن لا يؤخذ عنه صواب لا يرد على خطئه .

ووجه الاستدلال بالأبيات أن هؤلاء الشّعراء وصفوا عملهم ، واجتهادهم في صناعة الشعر وتجويد بلاغته وهم أهل الصَّنْعة ، والذي قالوه في صناعتهم لا يجوز إغفاله لأنهم كما قال الخليل يحتج بهم ولا يحتج عليهم ، وعلينا أن نَتتَبَّعَ وَصَفَهُم لتجويد صنعتهم لأن البلاغة لا معنى لها إلا هذا ،

وترى تميم بن مقبل لا ينتج البيت السائر القريب المشهَّر يعني البليغ المستجاد إلا بمعاناة ومكابدة وإعمال عقل في الصور والمعاني وكل ما يدخل في بناء الشعر ، وقد عَبَّر عن مكابدته بقوله «ضَرَبْتُ له حُزُونَ جبال الشعر حتى تَيَسرَا» وراجع هذا لأنه وإن كان موغلاً في المجاز دال على مكابدة في استخراج البيت الجيد كمكابدة من يضرب بالمعول في الصخر الصلد ، وهذه أشق المكابدات وهذا هو طريق الإحسان الذي تجد الحق جل جلاله مع سالكيه لأنه سبحانه مع المحسنين . صناعة الشعر عند مُقبلٍ واستخراج البيت الجيد هي من باب صناعة تكسير الحجر في الجبال وتزيد عنها أن مطلوب الشاعر لا يظهر له ولا يجيئهُ ولا يُقْبلُ عليه إلا بعد لأي ولأواء فهو لا يزال يضرب في حزون الجبال ويضرب . ثم يخرج له الأغرُّ المشهَّر الذي كان هاجعًا في أعماق كهوف جبال الشعر ، لم يخرج إلا بعد النصب ، والمكابدة ، وبالغ المشقة ، فإذا ما خرج رأيت الناسَ يجتمعون حوله يَمْسَحُون وجهه بأيديهم ، وكأن هذا من حكايات الأساطير ، ولا يجوز عند من به طِرْق أي أقل قدر من العقل يَعْقِل به أيْسر الأشياء أن يكون كل هذا من أجل مذاقات الحروف وخلو الكلام مما يكُدُّ اللسان ويؤذي السمع . لأن خلو الكلام مما يكدُّ اللسان ويؤذي السمع تجده في كلام الأخرق والخرقاء .

ثم إنك ترى في مكابدات مقبل التي قصد بها تيسير ما تعسّر من البيان أصلاً من أصول البلاغة ذكره عبد القاهر وهو أن كل عمل جيد وله قيمة لا يتحقق إلا ببذل مجهود ، وأنك إذا رأيت كلاما يعطيك جوهره بسلاسة وسهولة من غير مجهود ، فالواجب أن تعتقد أن المتكلم الذي يَسَّره لك وسهله عليك قد بذل فيه المجهود ، وهذا كلام مشهور لعبد القاهر في أسرار

البلاغة في باب التمثيل ، وكلامه هناك قريب جدًّا من كلام تميم بن مقبل ، ضَعْ قول تميم ضربت له حزون جبال الشعر بجوار قوله : « فهل تشك في أن الشاعر الذي أدّاه إليك ، ونشر بزّهُ لديك قد تحمّل فيه المشقة الشديدة وقطع فيه الشُّقة البعيدة ، وأنه لم يصل إلى دُرِّه حتى غاص ، ولم يَنَلْ المطلوبَ حتى كابد الامتناع والاعتياص »[1].

لا شك أن العلاقة بين الفكرة البلاغية التي هي من جوهر أسباب تأثير التمثيل عند عبد القاهر ، والتى شاعت في الكتاب كله ، وخلاصتها أن القيمة الأعلى حيث تكون المشقة ، لا شك أن العلاقة بين هذا وبين كلام ابن مقبل لا يُستطاعُ تجاهلها .

ثم إنك ترى المُجمل المطوي في بيت تميم والذي أضمَرهُ في قوله (ضربت له حزون جبال الشعر) قد فصَّله عدي بن الرقاع في قوله : أجمع بينها « حتى أقوّم ميلها وسنادها » ، نظر المثقف إلى آخره وقول عدي أجمع بينها يلتقي مع قول بشار « لاءمت بينه » والمقصود أحدثت تآلُفًا وتلاؤمًا بين مكونات الشعر ، ولا يذكر الشاعر هذا ويعتد به في صناعته إلا إذا كان هذا التآلف والتلاؤم عَصِيّا ولا يكون عصيًّا إلا إذا كان بين مختلف ، ومن هذا تطل لنا كلمة الباقلاني التي أفاد منها عبد القاهر كثيرًا وهي تأليف المختلف ويذهب الباقلاني إلى أن تأليف المختلف هذا الذي جعله عدي وبشار جل صنعتهما في الشعر وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن ، يعني هو وحده في الكتاب العزيز تقوم به حجة الله على خلقه وهذا يعنى أنه إن لم يكن جوهر البيان فهو من جوهر البيان لأن الإعجاز لا يكون إلا في شيء ينال لسانُ

---

(١) أسرار البلاغة صـ ١٤٥ .

الناس منه أطرافًا ثم يعلو الإحسان فيه مرقبًا بعد مرقب حتى تنقطع على درجاته الأطماع وتقهر القوى والقدر ، وهذا كما ترى نَفْحٌ من نفح عدي وبشار ، ولا أريد أن أتابع لك (لاءمت بينها) وامتدادها في الدراسة البلاغية ، لأني هنا أنبُّه فقط ولا قيمة لتنبيهي هذا إلا عند من يعرف مواطئ الأفكار البلاغية ، وأين امتدت واتَّسَعتْ ، لأن فكرة الملاءمة هذه لم تقف عند الباقلاني ولا عبد القاهر وإنما رأيت حازمًا يطيل الكلام فيها ويكرره ، ويُسميّها حسن الاقتران يعني حسن الملاءمة وقد آل حسن الاقتران الذي هو امتداد ظاهر لملاءمة بشار وجمع تميم وتأليف المختلف إلى آخره آل إلى علوم القرآن وصار علمًا مستقلاً هو علم المناسبة وسوف نتكلم عنه وسوف نتكلم أيضًا عن ما ذكره الدكتور شكري عياد رحمه الله من أن هذا في كتاب حازم أثر من آثار حديث أرسطو عن الوحدة .

وقد عقب عبد القاهر على هذه الأبيات ونظائرها كثيرة بقوله « ليس كلامهم ـ يعني كلام الشعراء ـ كلام من خطر ذلك منه ببال ـ يعني القول بأن البلاغة في مذاقة الحروف ـ ولا صفاتهم تصلح له على حال ، إذ لا يَخْفَى على عاقل أنْ لم يكن ضَرْبُ تميم لحزون جبال الشعر لأن تسلم ألفاظه من حروف تثقل على اللسان ، ولا كان تقويم عدي لشعره وتشبيهه نظره فيه بنظر المثقف في كعوب قناته لذلك ، وأنه محال أن يكون له جعل بشار نور العين قد غاض فصار إلى قلبه ، وأن يكون اللؤلؤ الذي لا ينام عن طلبه ، وأن ليس هو صوب العقول الذي إذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب ، وأن ليس هو الدُّرُّ والمَرْجان مؤلفًا بالشذر في العقد ، ولا الذي كان له البحتري مقدرا تقدير داود في السرد كيف؟ وهذه كلها عبارات عما يدرك بالعقل ويستنبط بالفكر ، وليس الفكر الطريق إلى تمييز ما يَثْقُل على اللسان

مما لا يثقل ، إنما الطريق إلى ذلك الحس»[1] وهذا النص صريح في أن كلام الشعراء في البلاغة مصدر من مصادر علمائها ، وأنه لا يجوز لمن يريد أن يؤرخ لهذا العلم أن يُغْفِلَهُ وإنما الواجب أن يبحث في جذوره ، وقد جاء في آخر دلائل الإعجاز وبعد ما قرر عبد القاهر ما أراد تقريره من أصول البلاغة والنظم ، وشرح الوجوه التي يأتي عليها النظم ، وفروق الاحتمالات الممكنة في بناء الكلام ، ومعنى هذا أن عبد القاهر يستدل بهذا الشعر كما يستدل بأقوال العلماء ، ويستظهر به كما يستظهر بأقوال العلماء على صواب تصوُّره للبلاغة ، وفساد تصور غيره ، وقد بَيّنْت أن في هذا الشعر أصول مسائل بلاغية مثل تآليف المختلف والنظم الذي صوّره أبو تمام وأنه اختيار الكلمات واختيار مواقعها على حسب الصورة الذهنية القائمة في نفس المتكلم وأنه بإزاء اختيار حبات الدر والمرجان والتفريق بينها بالشذر كل ذلك على وفق صورة العِقد الكريم التي قامت في ذهن وخيال ناظم العقد ، ثم وضعه في عنق الفتاة الرود أعني الصغيرة الكاعب الحسناء ، وأذكر أن هذا التصوير بعينه قرأته في شرح متأخر من شروح العلماء وأن الشارح جعل نظم الدر والمرجان والشذر بإزاء الصياغة . وجعل عنق الفتاة الرود بإزاء المعنى أو الغرض ولكن نسيِّتَ موضعه .

ولم يفصل عبد القاهر ما يستفاد من هذه الأبيات على الوجه الذي أريده لأنه لم يكن بصدد الحديث عن الجذور الذي أنا فيه ، وإنما اهتم بما في الأبيات من دلالة ظاهرة على أن البلاغة لا سبيل إلى إيجادها في الشعر والكلام إلا بإعمال العقل ، ولا سبيل إلى استخراجها من الكلام إلا بإعمال

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٥١٩ .

العقل ، واستنباط الفكر ، وأن كل ما ذكره عبد القاهر من مفهوم النظم ومقصوده والمراد به والأسرار والدقائق المطيفة بالنظم ، والمتفرعة عنه ، كل هذا من باب إعمال العقل ، واستنباط الفكر ، وليس في البلاغة فن لفظى محض ، ولا مذاقة الحروف ، ولا شَقْشَقَة ألفاظ ولا خفة لسان ، والذين يقولون إن البلاغة مشغولة بالألفاظ والخطب الرنانة على حساب العقل يتكلمون عن بلاغة أخرى في لغة أخرى وعند قوم آخرين ، الشعراء حددوا الجهة التي منها تُطلب ، والأدوات التي بها تستخرج ، والكدح الذي يخرج منها الأغر المشهَّر الذي يمسح الناس وجهه . والله أعلم .

* * *

ذكر الجاحظ رجالاً وصفهم بأنهم جهابذة الألفاظ وحذاق المعاني وكان شديد الحفاوة بهم وكثير الأخذ عنهم .

ولا خلاف في أن الجاحظ يوشك أن يكون متفردًا في سعة ثقافته ودقة معرفته بأسرار البيان ، وكان عبد القاهر شديد الحفاوة به وكثير الأخذ عنه ، وكان يُعوِّل عليه أكثر مما يعوّل على الخليل وسيبويه ، ولا أشك في أن الذين وصفهم الجاحظ بجهابذة الألفاظ ونقاد المعاني هم من أهل الطبع الذين تُؤْخَذُ عنهم اللغة ، وكان الجاحظ أحيانًا يصرح ببعض أسمائهم مثل محمد بن إبراهيم العَلوي الهاشمي ، المُلَقب بالإمام ومثل محمد بن على ابن عبد الله بن عباس ، وقد عهدنا جيل الجاحظ إذا عزا العلم بالشعر والبيان إلى من سبقوهم إنما كانوا يريدون أوائلنا من زمن الصحابة وكبار التابعين .

والمقصود من هذا هو أن بين يدي نصوصًا لعبد القاهر يتكلم فيها عن جذور البلاغة ، وهي قريبة الشبه جدًّا بما رواه الجاحظ عن هذه الطبقة .

والرجوع بجذور المعرفة إلى أصولها في كلام الجيل الأول مما لا يجوز لنا السكوت عنه ، إذا ظهر لنا ظهورًا أكيدًا ، لأنه من إزالة ما يلتبس وحلِّ ما ينعقد .

وقد بينت الصلة بين ما في كلام الشيخ الإمام ، وما جاء في الشعر الأول وأشير الآن إلى صلات أخرى والله الموفق .

يقول عبد القاهر في بيان المراد بالفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة « ومن المعلوم أن لا مَعْنَى لهذه العبارات وسائرِ ما يجري مجراها ، مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة ، ويُنْسَبُ فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى ، غير وصف الكلام بحسن الدلالة ، وتمامها فيما له كانت دلالة ، ثم تبرُّجها في صورة هي أبهى ، وأزين وآنق وأعجب ، وأحق بأن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب . . ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصَحُّ لتأديته ، وتختار له اللفظ الذي هو أخص به »[1] انتهى كلام الشيخ .

وهذا النص من أجمع وأكرم نصوص عبد القاهر ، لأنه تحديد للبلاغة والبراعة ، وما يجرى مجراهما ، يعني هو بيان للجذر الذي تَفَرَّعَتْ منه كل الفروع .

وحسن الدلالة هو جوهر صناعة الكاتب والشاعر ، وكل متكلم يحاول أن يُعبِّر عن ما في صدره بكلام جيد مصقول ، وما من الناس من أحد إلا وقد حاول ذلك ، وكل نفس تحب أن تُبِينَ عن ضميرها إبانة حسنة .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٤٣ .

البلاغة هي صَنْعةُ كل صانع بيان ، وهي حسن الدلالة وتمامها بتمام الذي له كانت دلالة ، وهذا هو جوهر ما في النص ، والباقي تبع له ، بل إن قوله « وتمامها فيما له كانت دلالة » هو أيضًا تبع والأصل هو « حسن الدلالة » .

والدلالة غير الدال ، وغير المدلول ، والدال هو اللفظ مفردًا كان أو مركبًا ، والمدلول هو المعنى ، والدلالة هي عمل المتكلم في المعنى ، ليخرج لنا الكلام المراد إخراجه شعرًا ، أو نثرًا ، أو كلامًا ، كالذي أكتبه . يَعْنِي القدرة المُبينة التي غرسها الله في كل ولد آدم والتى بها يَبينوُن عن ما في ضمائرهم، وعملها هو الربط المتقن المحكم بين اللغة والمعاني التي في الصدور ، وقد شرحه عبد القاهر في مواطن كثيرة وحقق المقول فيه وأنه عمل العقل في المعاني وتهيئة هذه المعاني وتصفيتها وترتيبها ثم تركها تطلب هي من الألفاظ ما هو بها أشبه وأشكل وأنها إذا تركت وذلك لم تَكْتَسِ من اللغة إلا ما هو أتمّ وأصفى وأجود ، وأن هذا هو الأيمن طائرًا والأحسن أولاً وآخرًا .

وهذا هو حسن الدلالة ، وإذا قلت إن كل كلام عبد القاهر والبلاغيين من بعده داخل تحت حسن الدلالة لم تكن متجاوزًا . ومن الواجب أن تتذكر أن صعوبة الدلالة وحاجتها إلى الحذق والبراعة ، إنما تكون بمقدار وفرة المعاني التي يراد الدلالة عليها ، ولاشك أن كل المتكلمين يُحسْنُون الدلالة عن المعاني المحدودة ، الشائعة في حياتنا وإنما تكون المشكلة وتكون الصعوبة إذا اهتاجت المعاني في القلوب ، وتدافعت الأهواء ، واختَصَمتَ الآمال واليأس في الصدور ، وأراد المتكلم أن يستقطب كل ذلك ، وأن يحوزها في الكلمات ، والتراكيب ، حينئذ تختلف الأقدار ، ويتفاضل الكلام ، ويحتاج اللسان إلى مهارة شديدة ، وخِبْرةٍ واسعة باللغة والتراكيب ، ويحتاج

إلى لقانةٍ لإدراك الفروق الخفيَّة في اللغة والمعاني وكيف يَنْصِبُ اللغة بكل إمكاناتها دليلاً على المعاني بكل غزارتها وتَفَاوتُها وهذا عالم آخر .

ولا شك أن النفوس تتفاوت في وفرة الإحساس ، وانبعاث المعاني ، والاستجابة للأحداث المثيرة ، ولا شك أن حسن الدلالة مؤسس على هذا وأكثر من هذا .

وقول عبد القاهر « وتمامها فيما له كانت دلالة » يعني وتمام الدلالة فيما له كانت الدلالة دلالة ، يعني المعنى المقصود ، وهذا تنبيه إلى ضرورة الوفاء والتمام في الدلالة ، ، وإلا دخل الوَهَنُ في الكلام . ولا شك أن وراء هذا الوعي بأن المعنى الذي كانت الدلالة له دلالة قد يكون متغازرًا ، ومتدافعًا ، ومتنوعًا ، ومُتَفَلِّتًا ، وهاربًا ، وأن حسن الدلالة هو في إصابة كل ذلك ، والدلالة عليه واستخدام كل ما في اللغة من قدرة على البيان الصريح ، وغير الصريح ، في الإحاطة بهذا الموج المائج كما كان يسميِّه الأستاذ محمود شاكر رحمه الله ، وقد قال صُحار العيدي كلمة تعين على بيان ذلك وقد سئل عن بلاغة قومه وقيل له « ما هذه البلاغة فيكم .؟ فقال : هو شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا » وهذه العبارة الجيدة تفيد أن الأصل في البلاغة هو المعاني التي تجيش في الصدور وتتولد فيها وتتكاثر وتتدافع ، وكلمة تجيش كلمة بالغة الدقة في الدلالة ، لأنها تَعْنِي فيضًا من الأحوال ، والمشاعر ، والغرائز ، والشهوات ، فيضًا من الرضى والغضب ، والحب والبغض ، واليأس والأمل ، وغير ذلك مما تبعثه البواعث في النفوس الحيَّة ، وأن كل ذلك يختلط ، ويتدافع ، ثم إن قوله (فتقذفه على ألسنتنا) كلمة جامعة وفيها إبهام وإجمال لأن وراءها ما نسميه حسن الدلالة ، لأن هذا

الجيشان لا يقذف على الألسنة إلا بعد معالجته ، والصبر عليه ، وترتيبه ، وتضمينه في اللغة في مفرداتها ، وأسمائها ، وأفعالها ، وحروفها ، وكل ما في اللغة من طاقات ، تعين على إجراء هذا الجيشان في كلمات يجري بها اللسان ثم إن وراء هذا أيضًا تمام الدلالة لأن الألسنة إذا طَافَ بها العِيُّ تكون قد وأدت الكثير من هذا الذي يجيش في الصدور .

وكلام عبد القاهر ليس بعيدًا من كلام صحار العبدي وعبد القاهر لم يتكلم كثيرًا في المعاني التي تجيش في الصدور لأن سيطرة الإعجاز على نفسه أَبْعَدَت هذه الفكرة ، لأنها ليس لها موضع في الحديث عن الإعجاز ، وفى كلامه شيء آخر قريب جدًّا من موضوع تغازر المعاني وسوف نأتي إليه . وأشير هنا إشارة مجملة وخلاصتها أن فضل الكلام عند الشيخ إنما هو في قدرة اللغة على استيعاب معنى أغزر ، وأوفر ، وأن هذا مقياس يقاس به فضل كلام على كلام ، وأنه باب متسع جدًّا ، ومراتبه متفاوتة تفاوتًا لا حصر له ، وأن الكلام به يعلو بعضه فوق بعض ، ويرتقى في أفق مفتوح يستوعب طاقة البشر ، ويتجاوزها ويدخل بهذا التفاوت آفاقًا لا تدخل في الوسع وتنقطع دونها الأطماع ، وذلك حين يبلغ البيان مبلغًا نجد فيه كلمات معدودة جاء بعضها في إثر بعض تفيد من المعاني ما يفوق علوم البشر ، وتقصر قوى نظرهم عنها ، ومعلومات ليس في مُنَن أفكارهم وخواطرهم أن تُفضى بهم إليها ، وأن تُطْلِعَهم عليها »[1] وقال : « كيف يكون أن تظهر في ألفاظ محصورة ، وكلم معدودة بأن يُؤتى بعضها في إثر بعض لطائفُ لا يحصرها العَدَدُ ؛ ولا ينتهي بها الأبد » واللطائف التي لا يحصرها العدد

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٤٩ .

هي المعاني ، هذا ظاهر في أن أصل الفضل في الكلام وأصل البلاغة هو غزارة المعاني المدلول عليها بالكلمات المعدودة ، وأن المرجع في كلام الناس إنما هو إلى ما في القلب والعقل مما تعبر اللغة عنه ثم قدرة المتكلم على حسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة وهو هذا الفيض الذي في الصدور .

والمهم أن هذا النص الذي هو « حسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين إلى آخر ما قال » نقل الجاحظ عن جهابذة الألفاظ ، ونقاد المعاني ، كلامًا لا يخرج عنه كلام الشيخ في هذا الباب ، الذي هو جذر الدراسة البلاغية ، ومن المعلوم لمن درسوا عبد القاهر أن حسن الدلالة وتمامها إلى آخره قد عبر عنه بعد ذلك بعبارة أخرى شاعت وأخْملت حسن الدلالة وهي « النظم الذي هو توخي معاني النحو » ولا معنى له إلا حسن الدلالة ، ثم إن المتأخرين عبروا عن النظم بمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهو تعريف البلاغة ، وكل ذلك معروف وإنما ذكرته لأُدُلَّ على أصْله فيما نقله الجاحظ عن جهابذة الألفاظ ، ونقاد المعاني ، وذلك ضِمْن كلام جليل نقله عنهم في قيمة البيان في الإبانة عن المعاني المتولدة في الصدور . والمُتَخَلِّجَة في النفوس ، والمُتَصَوَّرةِ في الأذهان ، وقد أطالوا في ذلك ، وأحسنوا ، ثم قالوا « وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ، ودِقَّة المَدْخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبْيَنَ وأنور ، كان أنْفَع وأنْجَع ، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيِّ هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يَمْدَحُه ويدعو إليه ويحث عليه »[1] .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

راجع هذا النص ، وضع بإزائه نص عبد القاهر الذي فَرَغْتُ من بيانه ، ولو حاولت شرح هذا النص ، فلن أجد ما أقوله فيه إلا ما قلته في نص عبد القاهر ، لأن الكلامين سواء ، مع ملاحظة أن الوضوح هنا هو المعنى الجاري في عروق هذا النص ، نجد ذلك في . . وضوح الدلالة . . . إظهار المعنى . . . الدلالة أوضح . . . الإشارة أبين وأنور . . . الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي . وإنما بني هذا النص على تأكيد معنى الوضوح لأن القضية هي الإبانة عن المعاني المتولدة في الصدور ، والمتخلِّجَة في النفوس ، والمُتَصَوَّرة في الأذهان ، وراجع هذه الكلمات تجدها كلها دالة على الخفاء والتستُّر ، وهي ليست بعيدة عن كلمة صُحار العبدي الذي قال له سيدنا معاوية ما هذه البلاغة فيكم؟ وقد فطن عبد القاهر لكل هذا ، ولما وضع كلمة «حسن الدلالة» مكان كلمة «وضوح الدلالة» رجع إلى معنى الوضوح وأفْرده بالكلام ، وذلك في قوله «ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين» والتبرج معناه الوضوح والانكشاف .

ثم إن هذا النص الذي بني على وضوح الدلالة ، كان له حضور في موضع آخر في كلام عبد القاهر ، وذلك في أسرار البلاغة حين ذكر في أوله وهو يتحدث عن قيمة البيان ، وأن الإبانة عن معاني النفوس هي مقوّم ذاته ، وأخص صفاته ، قال ولهذا «كان أشرف أنواعه ، ما كان فيه أجْلَى وأظهر ، وبه أوْلى وأجْدَر»[1] وأكد أن وضوح الدلالة أصل تفاضل الأقوال لمن أراد أن يقسِّم حظوظ الأقوال من الاستحسان ، ويَعْدِل بينها القسمة بصائب القسطاس والميزان» .

---

(١) أسرار البلاغة صـ ٤ .

ثم إن كلمة «دِقَّةُ المَدْخل» التي جاءت في كلام العارفين بصنعة البيان، عبر عنها عبد القاهر في نصه السابق بقوله «أن يأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته».

«والمدخل» و«الجهة» ليس بينهما فرق كبير، وكذلك كلمة (التى هي أصح لتأديته) التي هي من كلام عبد القاهر إنما هي بيان لكلمة «دِقّة» التي هي من كلام هؤلاء الأوائل.

ولم أقرأ لعلمائنا كلامًا يُفَسِّر مداخل المعاني، أو الجهات التي هي أصح لتأديتها إلا كلامًا لحازم بعد ذلك بقرون، وإنما اجتهدت في بعض ما كتبت، وقد يخطئ المرءُ ويصيب وأضعُ بين يديك شيئًا مما أراه يضيء هذه الكلمات.

قال البحتري يمدح أبا مسلم بن حميد الطائي:

**بأرْوَعَ من طَيٍّ كأنّ قميصَه يُزَرُّ على الشيخين زيدٍ وحَاتِمِ**
**سَماحًا وبأسًا كالصواعق والحَيَا إذا اجتمعا في العارض المتراكمِ**

قالوا «صَبَّ البحتري هذا المعنى في قالب لا يكاد يُظفر به».

وزيد المذكور هو زيد بن مُهَلهل الطائي، وفد على النبي ﷺ سنة تسع وأسلم وسماه النبي ﷺ زيد الخيل وكان شجاعًا شاعرًا خطيبًا، وحاتم هو الجواد المعروف.

وقد يكون المراد بقولهم «صب المعنى في قالب لم يظفر به» قول البحتري «كأن قميصه يُزَرُّ على الشيخين» لأن قوله «زيد وحاتم» بيان وقوله سماحًا وبأسًا إلى آخره كثير في الشعر فلم يبق في البيتين شيءٌ غَيرُ

متعالم إلا قوله «يُزَرُّ على الشيخين» وشيء آخر هو أن قوله «سماحًا وبأسًا» حالان من قوله «يزر على الشيخين» ولو سكت عن الحالين لفهم المعنى ، لأن زيدا يضرب به المثل في البأس ، وحاتمًا يضرب به المثل في الجود ولكن الشاعر كأنه يُطيل الكلام ويَمْطُله ، لأنه يجد لذَّة في ذكر هذه الخلال ، وكأنه يتغَنَّى طَرَبًا بهذه الخلال ، ثم إنه أدخل في كلامه صَنْعة خفيَّة فقدّم السماحة الراجعة إلى حاتم المؤخر في الذكر ، على البأس الراجع إلى زيد المقدم في الذكر فتعادل الكلام . ثم رجع وقدّم ما أخر وأخر ما قدم في قوله «كالصواعق والحيا» وهكذا تجد الترديد والتكرار وتبادل المواقع والإشباع ومَطلْ المعاني وكل هذا من الإحساس بالطُّرْبة والتغنِّي .

ولما كان المعنى الذي ذكره أولاً وهو الجمع في قميصه بين السماح والبأس جمعًا بين أمرين مختلفين ، لأن السماح بَسْطٌ وعطاء ، والبأس غَضَبٌ وحِدَّة ، أراد الشاعر أن يؤنسنا بصحة ذلك ، وأن يزيد الأمر تصويراً فذكر هذا المثل (كالصواعق والحيا) واجتماعهما في العارض المتراكم أراد السحاب الذي يركب بعضه فوق بعض ، والبحتري يفعل ذلك كثيراً ومنه قوله :

**دان على أيدي العفاة وشاسع عن كل ندٍّ في الندى وضريب**

**كالبدر أفرط في العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب**

فإنه لما جمع بين الصِّفَتَيْن «دان وشاسع» أكد ذلك وآنس بقوله كالبدر أفرط في العلو إلى آخره .

ومدخل البحتري في بيان معناه والجهة التي أتى منها إليه وطريقة البناء في قوله «وأروع من طي كأن قميصه إلى آخر» هي مدخله وجهته وطريقته التي بنى عليها قوله في مدح الفتح بن خاقان :

تنقّـــــل في خُلُقـــــي سُـــــؤدَدٍ سماحـــا مُرحَّـــى وبأسًـــا مهيبًـــا
فكالسَّـــيفِ إن جئتَـــهُ صـــارخا وكـــالبحر إن جئتـــه مُسْـــتثيبا

ومراجعة هذا والذي قبله تؤكد أن مخرج الكلامين مخرج واحد وطريقة البناء طريقة واحدة ، مع الاختلاف في كثير من الدقائق . وأول ما يلفت هو ذكر السماحة والبأس ، ولم يخالف ويقول الشجاعة والندى ، مثلاً تم بناء الكلام على الإيضاح بعد الإيهام ، فقد أبْهم هناك بكلمة الشيخين ، ثم بين بزيد وحاتم ، وأبهم هنا بكلمة « خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ» ثم بين بالسماحة والبأس ، ثم أشبع المعنى ومطل الكلام وتغنى بالخلال الحميدة فرجع إلى المعنى وأعاده في قوله « فكالسيف إن جئته صارخًا ، وناقل بين الصِّفْتَيْن كما فعل هناك ، فقدم السماح أولاً ، ثم أخَّرهُ ثانيًا ، وأخَّر البأس أولاً ، ثم قدمه ثانيًا ، ولم يذكر لنا هنا مثلاً يؤكد به صحة المعنى ، ويزيل عنه الرَّيْب ، لأنه لم يَقُل كأن قميصه يزر عليهما كما قال هناك ، وقد زاد في وصف الصفتين فوصف السماح بالمرجّى ، ووصف البأس بالمهيب ، وقد راعى ذلك في التشبيه بعده فقال إن جئته صارخًا ، وإن جئته مستثيبًا ، وكأن كلمة « مُرَجَّى» في البيت الأول فتحت الباب لكلمة « مُسْتَثيبًا» في البيت الثاني وكلمة « مهيب» في البيت الأول فتحت المعنى لكلمة (صارخًا) في البيت الثاني .

وطرب البحتري وغنائيته بالخلال الحميدة وصف ظاهر في شعره ، وهو هنا يتغنى بخلال الفتح بن خاقان ودليل هذه الغنائية هو هذا الترجيع النَّغَميِّ الظاهر في البيت الثاني ، والذي أبْرَزه الشرط المكرر مع فعله ، الواحد (إن جئته) والحال المستخرجة من كل شرط ، ومقابلتها لأختها ، وهذا ظاهر .

أقول هذا المدخل لأبي عبادة ، والجهة التي أتى المعنى منها في الشاهدين السابقين يَخْتَلِف عن المدخل ، والجهة التي أتى أبو هفان هذا المعنى نفسه منها ، وذلك في قوله يذكر قومه وقد تَقَدَّم وجوّد .

**ولا عَيْب فينَا غَيْر أن سَمَاحنا أضرَّ بنا والبأسَ من كل جانب**
**فأفْنَى الرَّدَى أرْوَاحَنا غير ظالم وأفْنَى النَّدَى أمْوالنا غير عائب**
**أبُونا أبٌ لو كان للناسِ كلِّهم أبًا وَاحدًا أغْنَاهُم بالمناقب**

سَلَكَ أبو هفان بالمعنى المسلك الذي سماه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وفيه من التوكيد والتقرير والإثارة والتهييج ما تَعْلم ولم يَبْن كلامه على إثبات الصفتين وتقريرهما كما فعل أبو عبادة وجوّد ، وإنما بنى كلامه أو جَعَل عمودَه لبيان أن البأس والسماح أضرَّا بهم ، وأن هذا هو عَيْبُهم إن كان ذلك في الناس معدودًا من العيوب ، وهذا المدخل وهذه الجهة تعني أن تقرير الصفتين لهم أمر مفروغ منه ، وأنَّه ليس مما يخالَفُ فيه وينازَع . ونَصْبَةُ الكلام وهيأته قائمة ليس على إثبات الصفتين ولكن على بيان أنهما أضَرَّا بهم ، كما تقول مابالها كالشمس ، لم تبن الكلام على إثبات شبهها للشمس ، وإنما بَنَيْت الكلام على التعجب من هذا الإثبات ، وكأن الإثبات مفروغ منه ، وهذا طريق جيد في تأكيد المعنى . ثم إن أبا هفان لم يَكْتف بالقول بأن السماح والبأس أضرَّا بهم ، وإنما فصل وبَيّن وأشْبَع المعنى ومَدَّ الكلام ، وطرب ، واهتز ، وتغنَّى ، ضع قوله « أفْنى الردى أرواحنا » بإزاء قوله « أفنى الندى أموالنا » تجد هذه الغنائية وهذه الطُّربة ، وهذا الاهتزاز ، وكان العربي ولا يزال العريق منهم لا يهزه شيء كما يهزه كرم الخلال ، ثم قوله « غير ظالم » بإزاء قوله « غير عائب » ثم إن

البيت الثاني كله بهذا الترجيع وهـذا الترديـد ، وهـذه الغنائيـة مؤسَّسٌ علـى الخلتين اللتين ذكرهما في البيت الأول ، وكرِّر البيت الأول تجده هـو باعـث هذه الغنائية ، ومثير لمعنى البيت الثاني ، وشرح له ، لأن قوله « أفنى » الذي تكرر هو تفسير لقولـه « أضـرّ بنـا » وحسبك أن تجـد هـذا البيـان العريـق الشريف يهتـز بـذكر فنـاء الأرواح في الـزود عـن الأرض والعـرض وحسـب المنايا عند هذا العربي العريق أن يكن أغَانيًا ، ثم كيف انتقل من هذا المعنى إلى البيت الثالث الذي بَلغَتْ فيه النشوة بكرم العِرْق مَبْلغًا جعله يقول لو كان أبوهم للناس كلهم أبا لأغناهم جميعًا بالمناقب ، لا تقل هذه مبالغـة وإنمـا قل هو إحساس النفس الكريمة بكرم الخلال ، وإرثها العريق من هذا الكـرم وهذه المروءة والنجدة والبأس والسماحة .

هذا شيء مما أراه يعين على فهم مداخل المعاني ، وجهاتهـا ، الـتي هـي أخص بها وحسبي أن أقول ما عندي إن صوابًا فمن الله وإن خطأ فمن نفسي وعليك أيها القارئ مثل ما عليّ .

والمهم أن العلاقة بين كلام عبد القاهر في تحديد ماهية البلاغة والفصاحة والبراعة ، وبَيْنَ ما رواه الجاحظ عن منْ وصفهم بأنهم جهابذة الألفـاظ ونقـاد المعاني علاقة لا يجوز إغفالها ، ثم إن عبارات كـثيرة لعبـد القـاهر تقـترب جدًّا من هذه الطبقة وكأنه أدار في نفسـه كـلام هـذه الطبقـة واسـتخرج هـذه العبارة منها مثل قوله « بصير عارف بجوهر الكـلام . . حسـاس مـتفهم لسـر هذا الشان » ومثل هذا كثير وكان عبد القـاهر يشـير إلـيهم ويرجـع بـالحكم إليهم ويعوّل بالقول عليهم .

* * *

ومن النصوص القديمة العريقة التي يترجح عندي أن عبد القاهر أطال النظر فيها ، وكشف غموضها وأدخلها في علمه الشريف . قول الجاحظ يروي عن بعض الربانيين :

« أنذركم حسن الألفاظ ، وحلاوة مخارج الحروف ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا ، وأعاره البليغ مخرجًا سهلاً ، ومنحه المتكلم دلاّ منعشقًا ، صار في قلبك أحلى ، ولصدرك أمْلَى ، والمعاني إذا كُسيت الألفاظَ الكريمة ، وأُلْبستْ الألفاظ الرفيعة ، تحوّلت في العيون عن مقادير صورها ، وأرْبَت على حقائق أقدارها بقدر ما زُيِّنَتْ ، وحسب ما زُخْرِفَتْ ، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجواري ، والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوي ، ومدخل خدع الشيطان خفي »[1].

ويقول الجاحظ في التَّعْقيب على هذا النص « اذكر هذا الباب ولا تَنْسَه وتأمله ولا تفرط فيه » .

وقد أخذ عبد القاهر بهذا النُّصح وتأمل ولم يُفَرّط ولا شك أن حسن اللفظ في قوله « أنذركم حسن الألفاظ » وفى قوله « إن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا » لا يراد به اللفظ المفرد ، ولا يمكن أن يراد به ، لأن المعاني لا تكتسى بالألفاظ المفردة ، ولا يقال إن معنى فرس اكتسى بلفظ فرس ، والحسن بين المفردات لا يكاد يلتفت إليه ، وغايته هو تجنب الوحشي ، والغريب ، والثقيل ، وهذا لا يحتاج إلى مراجعة ومشقة ، والفَاءُ التي في قوله « فإن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا وأعاره البليغ مخرجًا سهلاً » دالة

---

(١) البيان والتبيين ٢٧٣/١ .

على ذلك لأن البليغ لا يُعيرُ الألفاظ المفردة مخرجًا سهلاً ، وإنما يكون عمل البليغ في الصياغة المُتْقَنة ، وتجويد أبنية الكلام وتآلف كلماته .

وأهم ما في هذا النص والذي نرى له صورة عند عبد القاهر هو قوله « والمعاني إذا كُسيت الألفاظ الكريمةَ وأُلْبِسَتْ الأوصاف الرفيعةَ تحوَّلَت في العيون عن مقادير صورها ، وأرْبت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زينتْ وحسب ما زُخْرِفَتْ ، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجواري »[1].

وقد جرت ألفاظ من هذا النص في كلام عبد القاهر ، ودقق تدقيقًا شديداً في شرحها ، وأصاب ، فالألفاظ من حيث هي جَرْس لا تربو بها المعاني ، ولا تتحول في العيون عن مقادير صورها ، وإنما تربو المعاني ، وتتحول بصَنْعَة يَصْنَعُها المتكلم في هذه المعاني ، ولا صنْعة له فيها إلا بإحْداث تغيير في صورها ، وهيئاتها ، فلا بد أن تكون الألفاظ التي إذا اكتست بها المعاني تحولت عن مقادير صورها هي صور المعاني ، وهيئاتها ، وأن يكون استعمال الألفاظ هنا استعمالاً مجازيًّا ، والمراد بها الصور ، والهيئات ، وخصوصية يَصْنَعُها المتكلم في المعنى ، ولا يستقيم الكلام إلا بهذا التأويل ، وإنما استعمل هؤلاء العلماء الألفاظ في معاني الصور ، والهيئات ، والخصوصيات حتى لا تلتبس صور المعاني ، وهيئاتها بأصل المعنى ، لو أنهم أطلقوا المعنى على صور المعنى ، وخصوصية تحدث فيه ، وتأمل قولهم « كسيت الألفاظ الكريمة وأُلْبِست الأوصاف الرفيعة » يدلك هذا التأمل على أن الألفاظ الكريمة من باب الأوصاف الرفيعة ، ولا معنى للوصف

---

(١) البيان والتبيين ٢٧٣/١ .

الرفيع الذي تتحول به المعاني في العيون إلا شيء يحْدُث في نفس المعنى ، ويزيد هذا بيانًا إذا نظرنا إلى قول امرئ القيس يصف سرعة الفرس ويقول « قيد الأوابد» فإن السرعة لما كُسِيَت هذا اللفظ الكريم ، وأُلْبِست هذا الوصف الرفيع تحولت عن صورتها ، وأرْبت على حقائق قَدْرها ، وكذلك قول أوس في وصف دنو السحاب « يَكادُ يَدْفَعُه من قام بالراح» هذه الكسوة الكريمة ، وهذه الصَّنعْة الرفيعة ، حوّلت قرب السحاب ودنوه من الأرض إلى صورة أخرى أرْبت على حقيقتها الدائرة على ألسن الناس في مثل قولنا دنا السحاب من الأرض ، وموضوع هيئات المعاني وصورها وخصوصياتها التي هي صنْعة كل ذي بيان في بيانه ، من أهم الأصول التي دار عليها كلام عبد القاهر ولا أشك في أن نص الجاحظ هو مَنْبت عُودها ومَنْبع مائها . وقد كان عبد القاهر يرجع بفساد الرأي في معرفة البلاغة إلى الجهل بأن من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور ، وتَحْدث فيها خواص ومزايا ، بعد ألا تكون ، وأنك ترى الشاعر قد عَمَد إلى معنى مبتذل فصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق إذا هو أغرب»[1].

وقد وقف عبد القاهر وقفة تدقيق ومراجعة ليزيل ما يتبادر إلى أفهام الناس من مثل قولهم «الألفاظ كسوة المعاني» أو «أخذ معنى عاريًا فكساه بلفظ من عنده» ونفى نفيًا قاطعًا أن يقوم معنى في النفس غير متلبس باللفظ الدال عليه ، وأنه لا يتصور ، ولا يمكن أن يُتصوّر وجود معان عارية من الألفاظ ، ولا يتصور أيضًا أن يكون عند المتكلم ، أي متكلم ألفاظ ، وإنما الذي عنده هو صَنْعته في المعنى ، واختيار العبارة وتدقيق البناء .

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٤٨١ .

يقول رحمه الله «من أين يُتصوَّرُ أن يكون ههنا معنى عارٍ من لفظ يدل عليه؟ ثم من أين يُعقلُ أنْ يجيء الواحدُ منا لمعنى من المعاني بلفظ من عنده إن كان المراد باللفظ نطق اللسان» .

ويقول «اللفظ في قولهم فكساه لفظًا من عنده عبارة عن صورة يحدثها الشاعر أو غير الشاعر»[1] وهذا تفسير مباشر لما نقله الجاحظ .

ويزيد الأمر بيانًا بقوله «إنهم جعلوا كالمواضعة بينهم أن يقولوا اللفظ وهم يريدون الصورة التي تحدث في المعنى والخاصة التي حدثت فيه»[2].

ومثل هذا كثير وهو شرح لنص الجاحظ الذي شاع في الكتب وصار يقرؤه الصبيان في أول كتاب عبد الرحمن كما قال الشيخ عبد القاهر وأراد عبد الرحمن بن عيسى الهمداني المتوفى سنة ٤٢٣ وكتابه الألفاظ الكتابية .

وقد وقف عبد القاهر وقفة خاصة عندما جاء في نص الجاحظ من أن الألفاظ في معنى المعارض ، والمعاني في معنى الجواري ، وأفضى نظره فيه إلى الذي قاله في المعنى ، ومعنى المعنى ، وهو كلام دقيق وجليل ولم أقرؤه لأحد قبل عبد القاهر .

ومن أهم ما فتح لعبد القاهر أبواب العلم هو ثقته في أن الكلام الصادر عن أهل العلم والفهم في أي باب من أبواب العلم لا يجوز لنا أن نكتفي فيه بالقراءة المعتادة ، وإنما لا بد أن نُعْطيه مزيدًا من النظر ، والمراجعة لأن فيه نفيسًا يجب أن يُستخرج ، ودفينًا يجب أن يُحفَر عنه فيُخْرَج ، ولذلك كان عبد القاهر يحذرنا كثيراً مما يهجس في الضمير وما عليه العامة ، ويطالبنا بالمراجعة ، والأخذ بما عليه المحصِّلُون ، وظني أن قراءة العلماء لكلام

(٢،١) دلائل الإعجاز صـ ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

العلماء يغيب عنا كثير منها ، والربط بين الألفاظ ، والمعارض ، والمعاني ، والجواري ، دعا عبدَ القاهر إلى أن يفكر في وجوه وطرق دلالة الكلام على مراد المتكلمين ، والتعرف على الخطوات التي يخطوها السامع ليصل إلى مراد القائل ، ابتداء من سماعه لألفاظه ، وكأنه ينتقل من الحديث عن صَنْعة المتكلم في كلامه ، إلى عمل السامع وخطواته التي يخطوها في الوصول إلى المعنى ، لأن المتكلم لم يضع السامع في كل حال أمام مراده وجهًا لوجه ، وإنما يخطو نحو مراده خطوة ثم يدع السامع يتم ما بقى .

وطول النظر والتفكير والتدقيق في وجوه الدلالة على المعاني أفضى بعبد القاهر إلى أن يقسم الكلام كل الكلام إلى ضربين :

ضرب أنت تصل فيه إلى المعنى من دلالة اللفظ ، كقولك زيد منطلق .

« وضرب أنت لا تصل إلى الغرض منه بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه ، الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ، ومدار هذا على الكناية والاستعارة والتمثيل »[1] ومثال ذلك أن قول امرئ القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب » يدل على معناه . دلالة مباشرة ، فكلمة « قفا » المراد بها الأمر بالوقوف ، ونبك المراد بها البكاء وهذا ظاهر . وقوله « وقد أغتدى والطير في وكراتها » دال دلالة مباشرة على أنه يَغْتَدِى والطيرُ في وُكُراتها ، وليس هذا مراد الشاعر ، وعلى السامع أن يحرك هذا المعنى ليصل به إلى المراد ، وسبيله إلى ذلك أن يكون عنده علم بأحوال الطير ، وأنها تبادر ، وتبكر في الخروج من وُكناتها ، وبهذا العلم الخارج عن مدلول الجملة يصل إلى مراد الشاعر ،

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٦٢ .

وأنه يسبق الطير في الوصول إلى غاياته ، وقل مثل ذلك في قولنا « رفيع العماد طويل النجاد قريب البيت من الناد» .

ليس المقصود أن عمود خيمته مرتفع ، ولا أن نجاد سيفه طويل ، وأن بيته قريب من مجتمع الناس ، لأن هذا كله لا معنى له ، في وصف الرجل ، وإنما المقصود معان وراء هذه المعاني ، وهو أنه شريف ، سيد في قومه ، لأن من عادة الكرماء والأشراف والسادة أن يَرْفَعُوا قبابهم ، وبيوتهم وهذا أمارة على أنه المقصود لذوي الحاجات ، وأنه طويل القامة ، وأنه يكون بيته حيث يُحُلُّه الجميعُ ، وكل هذا لا يفهم من اللفظ ، وإنما يدل اللفظ على معنى ثم يفهم هذا من هذا المعنى ، وبذلك تتحول المعاني المباشرة إلى دَوَالٍّ لا إلى مدلولات كما في أساليب الحقيقة .

يقول الشيخ عبد القاهر محللاً طرائق الدلالة في مثل هذا الأسلوب :

« وإذ قد عرفت هذا فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى ، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذي تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر » ثم يقول وهذا هو المقصود « فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة للمعانى ، وحِلْية عليها ، أو يجعلون المعاني كالجواري ، والألفاظ كالمعارض لها ، وكالوَشي المحبر ، واللباس الفاخر ، والكسوة الرائعة ، إلى أشباه ذلك مما يُفخّمُون به أمر اللفظ ، ويجعلون المعنى يَنْبُل به ويَشْرُف فاعلم أنهم يصفون كلامًا قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى ، فكنى ، وعرّض ، ومثَّل ، واستعار ، ثم أحسن في ذلك كله ، وأصاب ووضع كل شيء منه في موضعه ، وأصاب به شاكلته ، وعمد

فيما كنى به ، وشبّه ، ومثّل ، لما حسن مأخذه ، ودق مسلكه ، ولطفت إشارته ، وأن المعرض وما في معناه ليس هو اللفظ المنطوق به ، ولكن معنى اللفظ الذي دَلَلْت به على المعنى الثاني ، كمعنى قوله « فإنّى جَبَانُ الكلبِ مَهْزُولُ الفصيل » الذي هو دليل على أنه مِضْيَاف فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشي ، والحَلْيُ ، وأشباه ذلك ، والمعاني الثواني التي يومأ إليها بتلك المعاني هي التي تكْسي تلك المعارض ، وتُزيّن ، بذلك الوشي والحلي »[1] لا شك في أن كلام بعض الربانيين الذي نقله الجاحظ كان بين يدي عبد القاهر وهو يستخرج هذا الأصل ، الذي هو ركن من أركان علمه ، وأن كلام عبد القاهر هو شرح من أجود ضروب الشرح وأنفذها ، وأنه قراءة نادرة لما بين يديه من كلام أهل العلم ، ومن المفيد أن نحاول بيان كيف نفذ عبد القاهر من كلام الربانيين إلى هذا الأصل الذي قرره .

وأول شيء أراه قد كان ، هو أن عبد القاهر كتب هذا في دلائل الإعجاز بعد ما كتب أسرار البلاغة ، وأتقن فيه طريقة الدلالة في التشبيه والتمثيل والاستعارة وأنها جميعًا تفهمنا المراد بوسائط فقولنا هند كالبدر وزيد كالأسد لم نقل فيهما هند حسناء ، ولا زيد شجاع ، وكذا قولنا في الاستعارة والكناية وإنما فهمنا المراد فيها كلها بوسائط ، وأن هذه الوسائط تحدث في صور المعاني وهيئاتها ، وأحوالها تغييرات ، وتحوُّلات ، ثم إن أهل العلم بهذا الشأن الذين يؤخذ عنهم ، قرنوا الألفاظ بالمعارض والحُليّ والزينة ، والمعاني بالجواري،ولا شك أن كسوة الجارية وحليها وزينتها مما تَتَغيَّر به،

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

وتتحول ، وأن الكسوة والحُليّ والزينة وسائط تحدث بها هذه التحولات في الجارية ، كما أن التشبيه والاستعارة والكناية وسائط تتحول بها أقدار المعاني .

وبهذا يصير كلام بعض الربانيين في القسم الخاص بالألفاظ والمعارض والمعاني والجواري مقصوراً عند الشيخ على أبواب البيان المعروفة ولم يبق إلا أنه سمَّى هذه الوسائط البيانية «معانى» ينتقل منها إلى المقصود وحينئذٍ تجلت له تلك الحقيقة الجليلة فذكر المعنى ومعنى المعنى والله أعلم .

* * *